كف الوهم

استكمالا لمقال [الذين يؤمنون بالغيب] أود أن أذكر هنا كيفية التشكيك فى عناصر الإيمان عن طريق النظريات العلمية التضليلية، فأحد أساليب التشكيك هو العلم الذى لم يسلم من أكاذيبهم، وقبل الاستطراد فى ذلك ينبغى التفرقة بين الحقيقة والظن والشك والوهم والكذب، وأسترجع هنا بعضا مما قال الشيخ الشعراوى رحمه الله: فالحقيقة هى ما يتأكد من حدوثه، والشك ما يحتمل حدوثه وعدم حدوثه بالتساوى، والظن ما يرجح حدوثه، والوهم ما يرجح عدم حدوثه، وقد يحدث أحيانا خلط الحقيقة بالظن والوهم والشك والكذب، ليتسلل الكذب المخلوط بالحقيقة إلى عقول الناس فيتعاملون معه كأنه حقيقة، ويحدث هذا فى كل من العلم الدنيوى والعلم الدينى.

وسوف أضرب هنا مثالا للعلم الدنيوى وهو قول نيوتن بأن الأجسام تندفع إلى الأرض بعجلة لأن الأرض تجذب الأجسام لأن كل كتلة لها جاذبية، فالمقطع الأول وهو اندفاع الأجسام إلى الأرض بعجلة حقيقة علمية يمكن تجربتها، وأما المقطع الثانى وهو إن الأرض تجذب الأجسام فهو شك لأن اندفاع الأجسام نحو الأرض قد يكون ناشئا عن جذب الأرض، أو شىء يدفع الأجسام من أعلى، أو شىء آخر لا نعرفه، ولا يوجد دليل على أن الأرض تجذب الأجسام، ولكن ما نعرفه هو إن الأجسام تندفع نحو الأرض، وأما المقطع الثالث وهو إن لكل كتلة جاذبية فهو وهم أو خطأ لأنه إذا وضع جسم بجوار جبل عظيم الكتلة فإنه لا ينجذب إليه ولو قليلا، والغريب الذى يشعرنى بالصدمة إننى أجد حتى كثير المتخصصين فى المجالات العلمية لا يكادون يعرفون الفرق بين الحقيقة العلمية وبين النظريات التى تحتمل الخطأ والصواب وبين النظريات التى ثبت خطؤها بالفعل، فعلى سبيل المثال يظن كثير من الفيزيائيين إن قول نيوتن كله حقيقة علمية ثابتة غير قابلة للنقاش، وأما المقطع الثانى فصار فيه شك كبير خاصة بعدما هبطت سفن فضائية على سطح القمر وفوجئوا بجاذبية شديدة وغير متوقعة (على حد قولهم) ولا تتناسب مع كتلة القمر كما إن جاذبية القمر تختلف باختلاف المكان، حيث كانت تقديراتهم بناء على نظرية نيوتن إنها ثابتة ومقدارها سدس جاذبية الأرض، والأعجب والأغرب أنه قد تجد فى بعض المناهج التعليمية حتى الآن إن جاذبية القمر هى سدس جاذبية الأرض بالرغم من أن هذا أثبت خطؤه بالتجربة. فتناسق وانسيابية اندفاع الأجسام إلى الأرض هو من بديع خلق الله تعالى الذى قال [ألم نجعل الأرض مهادا] ولا يعرف عظمة ذلك حق المعرفة إلا من حاول أن يمشى على سطح القمر أو حاول أن يبنى بناء على سطحه.

فأما ما يسمى بقانون الجذب العام لنيوتن، وملخصه أن كتل الأجسام هى منبع الجاذبية، فإنما هو كذب محض وهراء واستهزاء بالناس، ومحاولة للتقليل من خلق الله تعالى، ولكن بعض الفيزيائيين يظنون أن هذا القانون صحيح لأن نيوتن قام بخدعة رياضية ربما انطلت على الفيزيائيين، وهى تلفيق هذا القانون على قانون كبلر الثالث. وقانون كبلر الثالث هو قانون جيد يدرس مسارات دوران الأجرام السماوية ولا يربطها بالكتلة. وأما ما يسمى بنظرية النسبية لأينشتين فإنما هى محاولة بائسة مستميتة لإنقاذ سمعة قانون الجذب العام لنيوتن، ولكن هيهات. ويمكن الإطلاع على التفاصيل الكاملة للخدعة الرياضية التى قام بها نيوتن فى مقال لأحد العلماء بعنوان (Newton's Formula of Universal Gravitation is Just Kepler's Third Law).

وهناك نظريتان أخريان تجسدان الوهم والكذب، وهما نظريتا الانفجار الكبير والتطور. أما نظرية الانفجار الكبير فملخصها أن الكون نشأ من انفجار، وأنا لا أتعجب من النظرية فحسب، ولكن من تداول كثير من العرب والمسلمين لهذا الكلام التافه الذى لا يستحق الذكر والتعامل معه كأنه حقيقة، وليس هذا فحسب، ولكن بعضهم يقول إن القرآن الكريم يؤكد هذه النظرية وإن هذا من الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم فى قوله تعالى [أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما]! وإنا لله وإنا إليه راجعون. إن كلمة رتق تعنى الاتصال، والفتق يعنى الانفصال، ولست هنا بصدد بحث معنى الآية ويحتمل أن يكون المعنى أن السماوات والأرض كانت متصلة فى بداية الخلق وفصلها الله تعالى، وقد ذكر المفسرون معان أخرى مثل نزول المطر وخروج النبات، ولا تحتوى الآية على أى معنى مقارب للانفجار، ووصف خلق الله بمثل ذلك تجاوز فى حق الله، ولا يمكن قبوله بأى شكل، لأن كلمة انفجار توحى بالعشوائية ولا تتناسب مع بديع عملية الخلق، ولتقريب المثل، إذا أراد قائل أن يصف بناء مبنى، فإنه لا يقول انفجر المبنى ولا يقول انفجر شىء فتكون المبنى، لأن هذه الكلمة تتناسب مع الهدم وليس البناء، قال تعالى [والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون]. فوصف عملية الخلق بأى صفة لم يذكرها الله تعالى، ولا تتناسب مع بديع عملية الخلق هو تجاوز غير مقبول. والنجوم والكواكب والمذنبات وغيرها لا تتحرك بعشوائية فى الكون، وإنما تتحرك فى مسارات محددة وأسلوب محدد من أمر الله تعالى وبديع خلقه.

وأما نظرية التطور فهى الأضحوكة الكبرى التى يهزأ بها اليهود من عقول المسلمين، وهى منتهى التطور فى أساليب الكذب والخداع، وليس العيب على اليهود ولا على المأجورين الطوافين فى المؤتمرات "العلمية" ليتكسبوا من نشر هذا الكذب الواضح، والباطل المفضوح، من ميزانيات أموال طائلة خصصها اليهود لهذا الغرض، ولكن العيب على المسلمين الذين يروج بعضهم لهذا العبث من أجل الأموال، وعلى المسلمين الذين سلموا قلوبهم وعقولهم لهذا الهراء. وإن كنت لا أرغب فى تفنيد هذا الكلام الفارغ، فأنا مضطر لذلك لأنى وجدت كثيرا من الشباب مبهور بهذه النظرية ومقتنع بها - ولا أجد فيها أى إبهار أو إقناع لمن كان يحتوى رأسه على مخ وقلبه على عقل. يقول داروين: إنه

لم يكن هناك إنسان، وكان هناك شمبانزى (وهو حيوان يشبه القرد) ثم تطور على مدار سنين طويلة وأصبح إنسانا! والذين يقومون بالدعاية لذلك مثلهم مثل كل النصابين والدجالين والأفاكين يقومون بثلاثة أشياء: يدعون أن لديهم أدلة علمية كثيرة وهو محال، ويتهمون كل من يخالفهم بأنه جاهل وتلك صفتهم، ويكذبون أكثر مما يتنفسون. ويلاحظ أن هذه نفس صفات وأفعال الفرق الضالة فى الدين، وهذا هو سبب ربطى بين وهم العلم ووهم الدين، وكل منهما يؤدى إلى التطرف غالبا إما بالإرهاب أو بالكفر أو كليهما. أعود إلى النظرية: يقول أصحاب هذه النظرية كلاما كثيرا جدا قد يتضمن مئات الصفحات، وآلاف النقاشات، وكل ما يمكنك استخلاصه من ذلك هو إن الدليل على وجود نظريتهم هو وجود تشابه بين الشمبانزى والإنسان، أو وجود تشابه بين كيفية عمل العينين واليدين (على سبيل المثال) عندهما، أو وجود تشابه بين الجينات (مكونات الحمض النووى) التى تحكم عمل العينين واليدين عندهما، أو وجود عضو فى جسم الإنسان أو الحيوان لا يعرف العلماء فائدته، فيدّعون كذبا إن هذا العضو ليس له فائدة وهو محال، ثم يبنون على ذلك (فلسفيا وليس علميا) إن هذا العضو كان جزءا من حيوان آخر، ولما تطور إلى الحيوان محل الدراسة بقى ذلك العضو أو جزء منه على حاله، ويظلون يكررون هذا الكلام بأساليب متعددة حتى يظن السذج إن لديهم آلاف الأدلة والبراهين العلمية، ثم يأتون بصور ومقاطع مرئية مرسومة عن كائن خرافى أسطورى يحمل بعض خواص الشمبانزى وبعض خواص الإنسان، فلما نسألهم أين يعيش هذا الكائن؟ وإذا كان منقرضا، فأين عظامه التى تحتوى على حمضه النووى لكى نرى هل يتوافق الحمض النووى مع هذه الصورة؟ يقولون إن هذه هى الحلقة المفقودة فى النظرية! وأتساءل: إذا كانت تلك هى الحلقة المفقودة فأين هى الحلقات الموجودة؟ وإذا كانت هذه الحلقة مفقودة، فلماذا تصرون على نشر صورة هذا الكائن الخرافى (نصف شمبانزى ونصف إنسان) على أغلفة الكتب العلمية؟ والحق إن ما يسمونه حلقة مفقودة ليست مفقودة فحسب، وإنما تم إثبات خطئها علميا. يقول علماء البروتينات (ما تنتجه الجينات) إن تطور أو تحويل إحد البروتينات إلى آخر (مثل تحويل بروتين جين عين الشمبانزى إلى بروتين جين عين الإنسان) يتطلب سلسلة من المعجزات، ولا يمكنهم فعل ذلك فى المعمل بأى شكل وتحت أى ظروف، فى الوقت الذى يقول فيه أصحاب النظرية إن كل جين من جينات الشمبانزى تحول إلى جين من جينات الإنسان عن طريق الصدفة، وإن جينات الإنسان التى لا توجد فى الشمبانزى تكونت عن طريق الصدفة، وإن جينات الشمبانزى التى لا توجد فى الإنسان اختفت عن طريق الصدفة. وأما ما يتعلق بوجود عضو فى الإنسان أو الحيوان لا يعرف فائدته، فهذا لعجز وقصور فى إدراك الإنسان، قال تعالى [وما أوتيتم من العلم إلا قليلا] ومن أمثلة ذلك الغدة الصنوبرية والزائدة الدودية فى جسم الإنسان، اللتان لم يكن يعرف فائدتهما فى الماضى ثم عرف العلماء فائدتهما بعد ذلك، والعظمتين الصغيرتين المنفصلتين عن العمود الفقرى فى جسم الحوت اللتين أدرك العلماء منذ أشهر قليلة جدا سبقت كتابة هذا المقال عملهما وفائدتهما (whale pelvic bone function).

فالإنسان يعرف التفاصيل الدقيقة عن عمل الأشياء التى يصنعها، مثل الأجهزة الكهربائية والميكانيكية وما إلى ذلك، ولكنه لا يعرف عن ما خلق الله من جماد وماء وإنسان وحيوان ونبات وأرض وسماوات وجبال وبحار ونجوم وكواكب إلا قليلا جدا مما أذن الله له به أن يعلمه، ولو أن أحدا قال إن الإنسان يعلم واحدا فى الألف من شىء واحد مما خلق الله، لكانت هذه مبالغة ضخمة وغير معقولة لما يعلمه الإنسان من خلق الله، والعلماء الباحثون الحقيقيون يعرفون ذلك جيدا، فكلما عرفوا شيئا من خلق الله عرفوا معه أن هناك ألف شىء لا يعرفونه أو أكثر من ذلك.

وقبل أن أنتقل إلى النقطة التالية، أود أن أوضح أن هناك عشرات من النظريات المشابهة لنظريتى الانفجار الكبير والتطور، وسوف يوجدون مئات أخرى، فهم يريدون إيجاد أى مدخل إلى الكفر، فاقتناع الشاب المسلم بأى من ذلك هو انتصار لهم، ومن هذه النظريات: نظرية الفوضى ونظرية التكيف والتحور ونظرية المتسلسة ونظرية تأثير الفراشة وغيرها، كما أنهم يحاولون إقحام هذه النظريات فى مختلف العلوم حتى يلتفت إليها الشباب، مثل علوم الحاسب الآلى وعلوم الالكترونيات وغيرها. كما أود أن أوضح شيئا آخر: هل أثرت هذه النظريات فى التقدم العلمى للغرب؟ والإجابة نعم: أثرت هذه النظريات بالسلب لأن العديد من المكتشفات الطبية الحديثة فى جسم الإنسان ومنها ما حصل على جائزة نوبل كان اكتشاف وظائف أجزاء من الجسم كانوا يظنون قديما أنه ليس لها وظيفة وأن وجودها فى الجسم صدفة.

ولكن لماذا يرهق اليهود أنفسهم فى الدعاية والترويج غير المسبوق لقانون الجذب العام، ونظريتى الانفجار الكبير والتطور اللتين لا ترتبطان بالعلم بأى صلة لا من قريب ولا من بعيد، وإنما هى من قبيل الأساطير والخيال الواهن، وإقحام هذه الترهات والتفاهات فى الكتب العلمية بالرغم من ثبوت خطئها علميا؟ الغرض من ذلك هو التشكيك فى أحد عناصر الإيمان الأربعة الأولى السابق ذكرها فى مقال [الذين يؤمنون بالغيب] وهى:

1- وجود الله تعالى، وأنه لم يلد ولم يولد، وليس كمثله شىء، وليس له كفء، وله الأسماء الحسنى وصفات الكمال.

2- إن الله تعالى خلق الكون وسخر ما فى الأرض للإنسان.

3- إن الله تعالى مسيطر تماما على ما يحدث فى الكون، وهو الفاعل الحقيقى لكل شىء.

4- إن الله تعالى يبعث جميع الناس من الموت فى اليوم الآخر.

فهم يحاولون التشكيك فى العنصرين الأول والثانى، بالقول إن انفجارا حدث عن طريق الصدفة كون السماوات والأرض، وصدفة أخرى كونت الإنسان، فإذا لم يستطيعوا، يكفيهم التشكيك فى العنصرين الثالث والرابع عن طريق القول بأن الأجرام السماوية تدور فى مساراتها بسبب قانون الجذب العام لنيوتن، وإن الكائنات تتكون وتعيش تلقائيا بنظرية التطور، للإيحاء بأن الله خلق الكون ثم تركه يسير من تلقاء نفسه وهو لا يعبأ به ولا يسيطر عليه ولن يبعث الخلق يوم القيامة.

وقد يقول قائل: أليس الله قادرا على أن يخلق الكون من انفجار، أو أن يخلق كل الكائنات من خلية واحدة؟ والإجابة إن الله على كل شىء قدير، ولكن لما كانت عملية الخلق غيبا لم يشهده أحد من البشر، فليس هناك أى منطق من الحديث عن كيفية بداية الخلق إلا بما كان محكما وواضحا من القرآن الكريم، ومن صحيح السنة، وليس تكييف الآيات والأحاديث وتحويرها وتغيير معناها ليتلائم مع نظريات فلسفية ليس لها قيمة أو هدف إلا التشكيك فى وجود الله تعالى وفى البعث بعد الموت. وقد حذر من ذلك الشيخ عبد الله المصلح أمين عام الهيئة العالمية للإعجاز العلمى فى القرآن والسنة حفظه الله.

وقد يقول قائل: كيف تكون هذه النظريات العلمية خاطئة وقد أجمع عليها العلماء؟ والإجابة إن هذه نظريات فلسفية بحتة وليست علمية لأنه لم يتم إثباتها بالتجربة فى المعمل، ولم يجمع عليها العلماء على الإطلاق، ولكن هذا من أساليب الترويج بأن يدعوا أن العلماء أجمعوا على شىء، وذلك بعيد تماما عن الحقيقة، وهذه النظريات لا تلقى اهتماما لدى العلماء كما يتصور البعض، فالعلماء الحقيقيون ينشغلون بالاكتشافات والاختراعات الحقيقية التى تنفع البشرية، أو التى يمكن الاستفادة منها فى الصناعة وغيرها. والنظرية الأكثر قبولا من نظرية التطور لدى العديد من علماء الغرب الآن هى نظرية التصميم الذكى (Signature in the Cell: DNA and the Evidence for Intelligent Design) التى تتلخص فى أن الله خالق كل شىء. وقول هؤلاء النصابين إن العلماء أجمعوا على نظرية التطور يذكرنى بقول الفرق الضالة فى الدين الذين قد يأتون بحديث موضوع على الرسول ويدعون أن الأمة تجمع عليه ويكفرون الناس لأنهم لا يعملون به بحجة أن صحابيا ذكر فى سند الحديث، أو يأتون بآية قرآنية يتركون معناها الحقيقى ويأخذون بظاهرها الذى يخالف معناها ويكفرون الناس ويتهمونهم بفساد العقيدة لأنهم لا يعملون بظاهرها الذى يتراءى لهم. ويعتمدون فى ذلك على جهل وغباء المتلقى الذى لا يعرف ما هو إجماع الأمة وفى غالب الأمر لن يحاول البحث والدراسة ليعرف آراء الفقهاء وأهل الحديث فى هذا الأمر. وهم يدعون أن الأمة أجمعت على رأيهم لأنهم يكفرون جميع من خالفهم قدمائهم ومحدثيهم، وبذلك انحصرت الأمة فيهم على فهمهم، وهم شر الناس. وكذلك ينحصر العلماء عند أصحاب نظرية التطور فى الكفار الذين لا يؤمنون بالله تعالى. ولو افترضنا جدلا أن العلماء أجمعوا على إحدى هذه النظريات فلن يغير ذلك شيئا من الحقيقة التى يؤمن بها المسلم وهى إن الله خالق كل شىء.

وتبقى نقطة هى كيف تتحاور مع من يجادلك بهذه النظريات؟ إن أفضل ما يمكن مجادلتهم به هو ما ذكره الله تعالى فى كتابه العزيز من محكم البيان، وقد أفصل ذلك فى مقال آخر بعنوان: فبأى حديث بعده يؤمنون، وأما ما يتعلق بالوهم فى الدين فقد أفصل ذلك فى مقال آخر بعنوان: تقاتلونهم أو يسلمون.

والله تعالى أعلم

أمين علام 21 أغسطس 2015